رسالة إلى الزملاء الأساتذة

صادق بوروبي
أستاذ بكلية الرياضيات، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا

مقدمة

إنّ الاهتمام الذي نوليه كأساتذة للمادة التي ندرّسها يجعلنا في كثير من الأحيان نتعجّب كيف يمكن لطلبتنا أن لا يستمتعوا بها: ماذا فعلتُ أو ماذا لم أفعل، يمكن أن يكون تفسيرا لهذا السلوك؟

من المعلوم أنّ الطلبة لا يصِلون إلى القسم بنفس الروح المعنوية والذهنية، فإذا كان البعض منهم يتمتّع بالرغبة في طلب العلم، فإنّ الباقي يصِلون إلى القسم دون أدنى حافز. من أجل ذلك كانت صعوبة مهمّة الأستاذ تتمثّل بالدرجة الأولى في استقطاب اهتمام الطالب بالمادة التي يُدرِّسها، مع البحث المستمر عن الكيفية التي يمكن أن تفجِّر لديه الرغبة في طلب العلم واكتساب المعارف بشكل عام.

1. أهمية التحفيز في تحريك الهمم عند الطلبة

إنّ جعل الدرس ممتعا لدى المتلقّي هو في حقيقة الأمر مسألة تفكير عميق، وحسّ مرهف، وخيال واسع، بالإضافة إلى شخصية قوية وحماسة مشعّة لا تفتر من جانب الأستاذ. هذا الأخير الذي يواجه صعوبات متنوعة، أكبرَها، أن يتمكّن من تحفيز أولئك الطلبة الذين تخلّوا عن كلّ مشروع يحقّق نجاحهم في المادة، وأن يحافظ في ذات الوقت على اهتمام أولئك الطلبة الذين يقدّمون أداء حسنا ويبدون رغبة كبيرة في النجاح.

من هنا كان التحفيز أحدَ أهمّ الدوافع إلى التحرّك والتفاعل والمشاركة. فإذا تعوّد الأستاذ على توزيع التعليقات السلبية في اتجاه الطالب، فإنّه لا محالة، يعكس له صورةً عن نفسه في غاية الإحباط، وهو بهذه الطريقة سيقع في فخّ البحث عن السهولة، تدفع به، في كلّ مرة، إلى التواصل مع طالب بعينه، لا لشيء سوى أنّه وجد هذا الأخير أكثر اهتماما بالمادة من غيره. من هنا يدخل الأستاذ في حلقة من الحوار الحصري، يجعل من باقي الطلبة يشعرون، تدريجيا، بأنهم مُقصُون منه وغير معنيين به، ممّا يدفع بهم، شيئا فشيئا، إلى فقدان كلّ حافز. في مثل هذا الجو من العمل، لا غرابة أن يشعر الجميع بأنّ الدرس لم يؤت ثماره. لذلك كان لزاما على الأستاذ أن يشجّع طلبته، فهذه هي أولى الخطوات نحو النجاح.

2. محورية التحليل الذاتي بعد نهاية كلّ درس

يميل الأستاذ في مواجهته لقسم لا يتفاعل معه، إلى إلقاء اللوم على طلبته، ويبدي استغرابه أمامهم، كيف أنّهم غيرُ متحمّسين؟ ولكن، هلاّ سأل الأستاذ نفسه عن طريقته في الأداء، هل كانت في المستوى المطلوب؟ فالحقّ، أنّه من الصعب عليه أن يعترف بأنّ أسلوبه في تقديم الدرس لم يكن مثيرًا للاهتمام، ولكن، ماذا لو كان الأمر كذلك؟ فالأفضل له ولطلبته أن يعترف بتقصيره، بدل أن يُوجِّه لهم أصابع الاتهام بنقص الحماسة لديهم وهو قبل ذلك منقوص منها. من هنا ندرك، كم هي كبيرة مسؤولية الأستاذ، فهو من خلال طريقة أدائه، وجاذبيته وشخصيته، يمكن أن يحمل طلبته على حبّ المادة التي يُدرِّسها. من أجل ذلك كلّه كان لزاما عليه وهو أمام قسم غير مهتم وغير مستقر، أن يسأل نفسه بين الفينة والأخرى: ماذا فعلتُ أو ماذا لم أفعل يمكن أن يفسِّر هذا السلوك عند طلبتي؟

بالفعل، فإنّ المسؤولية الكبرى تبقى في عنق ومرمى الأستاذ، الذي يتوجّبُ عليه أن يُخضع نفسه لتحليل ذاتي بعد نهاية كلّ درس، إذا رغب بالطبع، في إيجاد الوسائل المحفّزة، مع العلم أنّ هذا الأمر صعب المنال.

3. مشكلة صياغة السؤال ووتيرة الدرس

كثيرا ما يُوجّه الأستاذ سؤالاً لا يجد مجيبا عنه، ولا يسأل نفسه فيما إذا كان هذا السؤال مفهوما من قبل الطلبة أم لا؟ في هذه الحالة يُستحسنُ إعادة صياغة السؤال، لأنّ طرحه بنفس الصيغة لا يُقدّم ولا يُؤخّر. ولعلّ الطريقةَ الناجعةَ للخروج من هذه المعضلة، حسب تجربتي المتواضعة، تتمثّل في جعل الطلبة يعيدون صياغة السؤال بأنفسهم، وبالعبارات التي يرونها مناسبة، بأن يتوجّه مثلا، إلى أحد طلبته بالسؤال: ما الذي فهمتَه؟ أو هل يمكنك إعادة صياغة السؤال بأسلوبك الخاص؟ وفي هذه الحالة بالذات، يُستحسنُ تجنُّبُ القول بأنّ الجواب سهل، لأنّه من الطبيعي أن يُصاب من لم يتوصّل إليه بالإحباط، ومن توصّل إليه لا ينتشي بإنجازه ما دام السؤال بسيطا. تجدُرُ الإشارةُ أيضا، إلى أنّ وتيرةَ الدرس وقوّةَ الدافع تسيران جنباً إلى جنب، لذلك يجب على الأستاذ أن يحرصَ على عدم الإسراع في إلقاء الدرس، بأن يُعطيَ للطالب الوقتَ الكافيَ لاستيعاب وإدراك المفهوم الذي تلقّاه قبل الانتقال إلى مفهومٍ آخر، وإلاّ فإنّ معظم الطلبة سيتيهون، ويبقى الأستاذ يصولُ ويجولُ وحده، وفي نفسِ السياق، فإنّ البطء والتكرار يقضيان على التحفيز عند الطلبة.

4. نحو مواجهة ظاهرة الملل عند الطلبة

ما يلاحظ أثناء حصّة الأعمال الموجّهة أنّ الطلبة المتفوّقين هم في الغالب أوّلُ من يشعرُ بالملل، فيضطربون عاتبين على زملائهم الذين، حسبَ زعمِهم، أبطؤوا مسيرتهم. أمام هذه الحالة، يمكنُنا مثلاً، أن نعرضَ على هذا الصنف من الطلبة تقديم يدِ المساعدة إلى زملائهم، فيشعرون حينئذٍ بأنّهم مفيدون وبأنّهم قد حقّقوا قيمةً مضافةً داخل القسم، فالأستاذ الجيّدُ ليس من يبذُلُ جهدا كبيرا بالمقامِ الأوّل، وإنّما هو من يدفع طلبته إلى بذل قُصارى جُهدِهم. إنّ الطلبةَ يتمتّعون بقدَر كبير من الخيال، وعلى الأستاذ أن يستغِلّه.

أثناء إلقاء الدرس، يمرُّ الأستاذ من مفهوم إلى آخر، ومن نتيجة إلى أخرى، ما يحتّم عليه تغيير وتحوير نبرة صوته، لأنّه في حالة ما إذا تسرّبَ الملل والرتابة إلى نفوس الطلبة، فبمجرد تغيير النبرة في الصوت يخرجون من هذه الحالة. إن الاعتماد على نبرة الصوت، يُمكن أن يكون وسيلة ناجعة لتنشيط الطلبة وتهدئتهم. فلا ينبغي التردّد في رفع حدّة النبرة أو خفضها بغرض كسر الإيقاع، ومفاجأة الطلبة، واسترعاء انتباههم، وإبقائِهم يَقِظِين بشحذ همّتهم باستمرار. تلك هي إحدى الوسائل لتجنُّبِ إصابة الطالب بالملل، الذي هو عامل مُثيرٌ للخمول والإثارة. إذا التزمنا بتغيير الإيقاع والصوت، تمكنّا من زيادة اهتمام الطلبة بشكل تلقائي.

5. العوامل الإنسانية و أثرها على مردود الطالب والأستاذ

في بعض الأيام، ينتابنا شعور بالإحباط والتعب والمضايقة من ضُغوُطِ الحياةِ اليومية، سيتهامَسُ الطلبةُ فيما بينهم بأنّ مِزاجَ الأستاذِ متعكّر في هذا اليوم. ولكن، هل نحن واعون جيدًا، وهل تبادرَ إلى أذهاننا لحظةً، أنّ للطلبةِ أيضاً مشاكلَهم ونَصيبَهم من عَنَتِ الحياةِ ونَصَبِها؟ وهو ما يُفسّرُ في بعضِ الأحيان عُزُوفَهم وعدَمَ تحفُّزِهم، علما بأنّه لا يوجدُ طالبٌ مُتحفّزٌ على مدارِ السنة كاملة. فبغضّ النظرِ عن كونِ الأستاذِ هو صاحبُ المبادرة في تحفيز طلبتِه أو تثبيطِهم، فإنّ التحفيزَ يتوقّفُ أيضاً على ما يَحدُثُ في الفصولِ الدراسية، وكذا في حياة الطالب، من ظروف

صحية، إلى اضطراباتٍ عاطفيةٍ ونفسيةٍ، إلى مشكلاتٍ شخصيةٍ وصعوباتٍ ماليةٍ إلخ. لكلّ طالبٍ، مثلما لكلّ أستاذٍ، تقلّباتٌ تُلقي بظِلالها على يومياتهما فترفعُ أحيانا وتخفضُ أحيانا أخرى من همّة كلّ واحد منهما.

فالأستاذ، من خلال شخصيته وسلوكه الإنساني، بإمكانه أن يُثيرَ اهتمامَ طلبتِه أو على العكس من ذلك يُنفِّرهم من المادّة التي يُدرّسها. إذا أسقطَ الأستاذُ الكُلفةَ والرسميات البروتوكولية بينه وبين طلبته، وشجّعهُم، وأمدّهُم بفيضٍ من الحيويةِ، ووُفّقَ في خلقِ جوٍّ من الثقة في فصلِه الدراسي، تُفضِي إلى تهنئته من قِبَلِ طلبته، فإنّه يزيدُ من فُرَصِه في التواجُدِ أمام فصلٍ دراسيّ حيويّ، متحفّزٍ ومستعدٍّ للتلقّي. على الأستاذ أن يتصرّفَ في قِسمِه أو في مُدرّجِه كأنّه مُمثّل، يُسَلّي جُمهُورَه ويُرَغّبُه في العودة. ولتحقيق ذلك، يُمكنُه اللّجوء بين الفَينة والأخرى إلى الفُكاهَة، فهي وسيلةٌ تستميل الطلبةَ دائمًا، فالفكاهة ورقةٌ رابحة، تريح الأنفس، والطلبة يأتون للفصل في جوّ، أقلُّ ما يقال عنه، إنّه لطيف. كما يمكنه أيضا أن يدرج قصّة قصيرة هادفة تحمل مفهوما فلسفيا يجعلها فاصلا بين درسين وقعا في نفس الحصّة.

6. أثر نظرة الأستاذ إلى طلبته

كلّ إنسانٍ تحذوه حاجةٌ طبيعيةٌ للاعتراف بشخصه من قِبل من يحيطون به، والطالبُ لا يَشذّ عن هذه القاعدة، فهو بحاجةٍ مُلِحّةٍ لنظرة الآخر إليه، واعتراف الآخر به. فلكي يتمكّن الطالبُ من الاهتمام بموضوعٍ مّا، ينبغي أوّلاً أن يحظى بالاعترافِ به كشخص، ومن هنا تبرُزُ الأهمية التي يوليها الطالبُ لنظرة أستاذه إليه. أن تنظُرَ إلى شَخصٍ مّا، فمعنى ذلك أنّك تُلاحِظُ وُجُودَه. فإذا نظرَ الأستاذُ إلى أحد طلاّبه، فإنّ هذا الأخيرَ سيشعرُ بأنّ أستاذه يولي اهتماما به. لأجل ذلك، يتوجّبُ على الأستاذِ أن يَغمُرَ قسمَه كلّه بنظرةٍ شاملة لا تستثني أحدا من طلبته، بحيثُ يشعرُ كلُّ واحد منهم بالتواصل والتواجد الفعلي داخل الفصل. ولهذا، وجب على الأستاذ أن يتجنّب تخصيصَه بالمعاملة لطالب بعينه، بل يجب أن يتذكرّ أنه يتعاملُ مع الفصل بكامله، فلا يتردّد، على سبيل المثال، في التقرّبِ من طلبته من حين لآخر، خاصة عندما لا يتوقّع الطلبة ذلك.

بالإضافة إلى ذلك، يجبُ على الأستاذِ أن يتجنّبَ مقابلةَ الطّلبةِ بظهرِه والإشاحَةَ عنهم بوجهِه، لأنّ ذلك يُشكّلُ حاجزًا معنويا، يُعِيقُ الحَركةَ السَّلِسَةَ لعمليّة التواصل، ألا ترى معي أنّه عندما لا ينظرُ الشخصُ إليك، فإنّك غالباً ما تشعرُ بأنّه لا يستمعُ إليك. ولذلك تجدُ الطّلبةَ في حالةٍ من الترقُّبِ والانتظار حتى نستديرَ نحوهم ليواصلوا الحديث. كما تجدر الإشارة إلى أهميةِ تجنُّبِ تربيعِ اليدين أو وضعهما خلف الظهر أو وضعهما في الجيب، لأنّ ذلك يعطي انطباعًا بعدم الرغبة في التواصل مع مُستمعيك.

7. حاجة الطلبة إلى علامات التشجيع

أسوأ موقفٍ يمكنُك أن تُواجِهَ به الطالبَ هو اللاّمُبالاة أو التّجَاهُل. فإذا أنت لم تُثنِ على الطالب يومًا، تقديرًا لجُهدٍ بَذلَه، فسوف يسعى بكل الوسائل إلى جذبِ انتباهِك. من أجل تجنُّب ذلك، يُستحسن تشجيعُ الطّلبةِ بانتظام، وتهنئتُهم، إمّا شفويا، عندما يقدّمُون إجابة مُثيرة للاهتمام، أو كتابيًا، على أوراق الاختبارات. إنّ الحاجةَ إلى علامات التشجيع مُهِمّةٌ في حياة البشر قاطبة، من أجل تغذيةِ الجهود وشحذِ العزائم، فبالتشجيع تَتِمُّ مكافأة الإنسان على العمل الذي يُقدّمه : عندما يشرعُ الطالبُ في الحديث، يُمكنُ للأستاذ مثلًا أن يَهُزَّ رَأسَه لإظهارِ اهتمامِه بما يقولُ، فهذا أقلُّ ما يمكنُه فعلُه. والطّلبةُ ذوُو المستوى الضّعيف هم أكثرُ الناس حاجةً إلى مثل هذا التشجيع الشفهي والكتابي، لأنّ نتائجهم في التخصّص غالبا ما تكون مُحبِطَة. ومن الأهمّية بمكان أن نتفهَّم هؤلاء الطلبة المحبَطين بشكل خاص، فشعورُ الطالب بالتفهّمِ والقبول من الآخر يُساعِدُه على التغيُّر.

ومِن بين ما يعنيه تشجيعُ الطالب، إظهارُ توقُّعاتٍ إيجابيةٍ وتحمُّلُ أخطائه بالصّبر والأناة. فحين يسترسلُ الطالب في طرحٍ معيَّنٍ، لا ينبغي قطعُ حبل أفكارِه باستمرار، بدافع تصحيح أخطائه، فإنّ ذلك قد يؤدي إلى ثنيِه عن المشاركة مرّةً أخرى. حَرِّر الطالبَ من أيّ تعليق، دعه يختِمُ تدخّله، ثم فكِّر، على سبيل المثال، في إشراك القسمِ كلّه في لعبةِ البحثِ عن الأخطاء. فبهذه الطريقة نتمكّنُ من اكتشاف الأخطاء المتكرّرة لدى الطلبة ونعملُ على تصحيحها بمعيّتِهم، فعلى الأستاذ ألا ينسى بأن الطالب إنما هو في القسم ليتعلّم، فمن الطبيعي تماما أن يخطئ.

8. مفعول حيوية الأستاذ ومناخ الثقة داخل القسم

يجبُ أن يكون الأستاذ حيويًا كلّما دخل قسمَه، بأن يُظهر تحفُّزًا كبيرًا في بداية كل درس، يجعل الطلبة يَشعرون بأنّ أُستاذَهم سعيدٌ بلقياهم ومُتحمّسٌ لبدء الدرس معهم. إذا أبانَ الأستاذ عن شيء من الحيوية، فسيحذو الطلبةُ حَذوه تبعا له.

أن تكون حيويًا لا يعني بالضّرورة مواصلة الحديث أو الحركة باستمرار، فعلى سبيل المثال، إذا لاحظ الأستاذُ بأنّ طلبته قد فَتَرَ تركيزُهُم، فربّما يكون الحلّ هو التوقُّفُ عن الكلام والتحرُّكُ لإعادة جلبِ الانتباه إليه، فالصّمتُ لا يتناقضُ بالضرورة مع الحيوية.

الأستاذ مُلزمٌ بخلقِ مُناخٍ من الثقة. فعندما يدخلُ الطالبُ إلى الفصل الدّراسي، يَحتاجُ إلى الشّعور بأنّ أستاذَه هو سيّدُ المكان، وأنّ كلّ ما يحدثُ داخله هو تحت إشرافه وسيطرته؛ في هذه الحالة، يُمكنُه الدخول إلى القسم، وكلُّه ثقة. يجب أن تكون علاقةُ الأستاذِ بالطالبِ علاقةَ ثقةٍ أو سلطةٍ قائمةٍ على قواعدَ أو معاييرَ معينةٍ، وبدونها لا يشعرُ الطالبُ بالأمان. فلا عجب أن تتدهور علاقته بأستاذه. كما يجب أن يشعر الطالب أيضًا، بأنّ أستاذَه مُرتاحٌ معه. لأجل ذلك، يمكن للأستاذ من حين لآخرَ أن يُلطِّفَ الجوّ، كأن يحجزَ لنفسه مكانًا بين طلبته كما لو أنه زميلٌ لهم في الصفّ. فبِمُجرّدِ استعادتهم للثّقة، ترى جميع الطلبة على أتمّ الاستعداد للمشاركة في النّشاط. إذا لم يَعُدِ الخَوفُ يَمنعُ الطّلبةَ من التوجُّه إلى الأستاذ في آخر الحصّة لاستِفسَارِه وطرحِ أسئِلتِهم عليه، فمعنى ذلك أنّ علاقةً من الثّقة قد نُسِجَت بين الأستاذ وطلبتِه. إذا لم يكونوا على عَجَلَةٍ من أمرِهم للخروج من القسم، فمعنى ذلك أنّهم يستمتعون بالحصّة لأنّ جوّ العمل مُمتع.

9. غريزة المُحاكاة و أثرها على العملية التعليمية

وأخيرًا، يجبُ ألاّ تغيبَ عن بالِنا لحظةً، حقيقةُ وجودِ رغبةٍ في المُحاكاة لدى الطالب، كما هو الحالُ لدى كل فرد. فالإنسانُ بطبعه مُنجذِبٌ إلى كلّ الذين يحبُّهم ويميلُ إليهم، فهو يريد أن يكون مثلهم : إذا أحبَّ الطالبُ أستاذَه، فإنّ ذلك سيدفعه إلى فعل كلّ ما بوسعِه من أجل الحصولِ على نتائجَ جيّدةٍ في المادّة، لكي يحظى بتقدير أستاذه. والطالب الذي هذا هو حاله، يكونُ مُستعدّا دائما لإرضاء أستاذه، بل إنّه يكونُ فخورًا بذلك، وهذا سلوكٌ مطمئِنٌ للأستاذ، وباعثٌ للنشوة في نفسه. إنه لا يمكنُنا نكران هذا البُعدَ العاطفي، فمن منّا لم يقُل يوما وهو طالب: "أنا أحبُّ هذا الأستاذ" أو "أنا أكرهُ هذا الأستاذ "؟

شئنا ذلك أم أبينا، قبِلناه أم رَفَضناه، لا يمكننا التنكّرُ لهذه الحقيقة. فنادرا ما يظلّ الطالب حياديا، فهو إمّا يحبُّك وإمّا يَكرَهُك. فلا تَختَلِطَنْ علينا الأمور، نحن لسنا أصدقاءَ مع طلبتِنا، ولا إخوةٌ كبارٌ لهم، ولا أولياءَ أوصياءَ عليهم : لا ينبغي أن ندَعَهُم يُصدِّقون غيرَ ذلك، فنكونَ قد كذبنا عليهم.

10. الخاتمة

في الختام، يُمكنني أن أقولَ إنّ النّجاحَ الحقيقي، والأصعبَ مَنالا، هو شعورُك وأنتَ ترى غالبيةَ طلبتِك يُبدُون رغبةً جامحة ويُظهِرُون مُتعة في حضورِ درسِك، لا لشيء سوى أنّهم يجلسون إلى شخص مكّنَهُم من تذوُّقِ المادّة، وقَبْلَ ذلك، سلّطَ، على وجهِ الخصوص، الضّوءَ على خيالِهم الواسع وعلى إبداعهم وذكائهم، باختصار، شخصٍ نفخ فيهم حبّ العلم وأولاهم بأهميّة خاصّة.

على أنّه إذا كان جلبُ اهتمامِ الطالب خلالَ حِصّةٍ واحدةٍ يبدو أمراً مُمكنًا، فإنّ الحِفاظَ على هذا المكسب وشدِّ اهتمامه بنفسِ الوتيرة من بداية السنة إلى نهايتها يُعتَبَرُ إعجَازًا. أعتقد بأنّ تحقيق مثل هذه النتيجة، يتطلّبُ عِدّة سنوات من التعليم والممارسة، لأنّه من خلال التجربةِ يتسنّى للأستاذ التوصّلُ إلى طريقةِ العملِ الملائمةِ لكلّ طالب، والتي تُمكّنُ هذا الأخيرَ من الاستمتاعِ بحضور الدّرسِ.

لا يفوتني، في الأخير، أن أذكّر زملائي الأساتذة بأنه إذا كان العلم شحنًا للأذهان بألوان لا حصر لها من المعارف والعلوم فإنّ التربية والأخلاق تعهّد للأرواح بألوان من المعاني والقيم، ترسم أمام الطالب وجهته نحو السلوك المنشود. فالأستاذ وهو يقوم بواجبه يكون كما قال الشيخ الغزالي، رحمه الله تعالى، أشبه بالزارع الذي يتولّى البذر والحرث والحماية والانتقاء حتى تنضج الثمرة وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. والطالب الذي يمرّ بهذه الأدوار ويشعر بصدق وأمانة أستاذه يُربَّى على الصدق والأمانة فيصعب عليه حينئذ التخريف وينزعج من العوج والغدر، مصداقا لقول الشاعر:

تعوّد بسط الكفّ حتى لو أنه **** ثناها لبخل لم تطعه أنامله

أخيراً، أُنهي رسالتي بهذه الخلاصة :

"الأستاذُ الذي يصْدُقك هو الأستاذُ الذي يقودُك إلى النجاح".